قصّة قصيرة

الانتقام

لشوارب «أبو حاتم»

شوقي بغدادي

معلومات أوّليّة

فكّرتُ أوّلَ الأمر أن أكتب هذه القصّة بشكل تحقيقٍ أجمعُ فيه معلومات أوّليّة عن الحادثة والرّجل المعتدىٰ عليه. ولكنّني تذكّرتُ أنّ معلوماتي عن «أبو حاتم» كافية ولا حاجة لسؤال أحد. فأنا أشتري مثلاً منذ عدّة سنوات سجائري من دكّانه الواقع في أحد الأزقّة المفضية إلى الشّارع العامّ قرب مستشفىٰ «المجتهد»، وأولادي يشترون دفاترهم وأقلامهم منه. وكم من مرّة تبادلتُ وإيّاه الحديثَ وأنا أتطلّع بإعجاب ـ ولأعترفْ بأنّه إعجابٌ مشوب أحياناً ببعض السخرية ـ إلى شاربيه العنتريّين المنتصبيْن كقوسين طرفاهما إلى أعلىٰ باستمرار.

كان من الممكن أن يبدو المنظر عاديّاً في الأحياء الشعبيّة لو كان جسمُ الرّجل أكثرَ طولاً أو ضخامة.. ولكن «أبو حاتم» لم يكن طويلاً، ولا جسيماً، بل كان على العكس تماماً: نحيفاً وأقرب إلى القِصَر. ولهذا السّبب كان منظر الشّاربين يبدو في النّظرة الأولى نابياً عن الجسد القميء. وكثيراً ما كنت أراه منهمكاً في العناية بهما وسط الدكّان. ولاريب أنّ هذه العناية كانت في الدّار أطول وأكثر تعقيداً وأنّه كان يستخدم لذلك زيوتاً من نوع خاصّ، وإلاّ فكيف كان ممكناً الاحتفاظ بمنظرهما الرائع هذا في كلّ الأوقات؟ وأذكر أنّني سمعته مرّة يقول لأحد جلسائه:

ـ الرّجل من دون شوارب ليس رجلاً..

فتدّخلتُ بقولي:

ـ سامحك الله يا «أبو حاتم».. نحن إذن لسنا رجالاً..

فأجاب مُحْرَجاً:

ـ العفو.. أقصد أنّ الشّوارب من أهمّ مظاهر الرّجولة وإلاّ لكان الله خلق للمرأة شوارب كالرّجل..

وحين أمعنتُ في مناقشته على سبيل المزاح أجاب ممازحاً وإنْ كان في الواقع جادّاً كلّ الجدّ:

ـ خُذ شَعْرَ العانة مثلاً.. لقد خلقه الله للرّجل والمرأة على السّواء، ذلك لأنّهما يحتاجان إليه معاً لإخفاء العورة..

كان أبو حاتم يملك إذن منطقَه الخاصّ في الإقناع والدّفاع عن قضيّة الشّوارب. وأمّا نحن، جيرانَه من سكّان الحارة، فقد تعوّدنا عليه. وماذا يضيرنا أن يكبّر الرّجلُ شاربيْه أو يصغّرهما مادام بائعاً مستقيماً، ورجلاً مسالماً وديعاً، ومواطناً صالحاً كما يقولون؟ كان اعتزاز «أبو حاتم» بشاربيه لا يَعْدِلُه إلاّ اعتزازهُ بولده «حاتم» الّذي رُزق به متأخرّاً بعد سنوات عقيمة من الانتظار. ويبدو أنّ الأب كان متعلّقاً بالابن كثيراً، فكان يصطحبه معه إلى الدكّان مذ كان في الثّالثة من عمره، وها هو في الثانية عَشْرة تقريباً يكاد لا يفارقه: يخرج الولد من المدرسة القريبة فيذهب إلى الدكّان مباشرة كي يحمل بعض الأغراض إلى البيت، ثمّ يعود فوراً ليقضي ما تبقّىٰ من النّهار مع أبيه يدرس ويساعده في البيع، ويتغدّيان أحياناً معاً في الدكّان إذا كان الطّلب على الدكّان شديداً، ثمّ يمضيان بعد صلاة العشاء مباشرة إلى دارهما في الميدان التّحتاني كما سمعت.

كان أبو حاتم باختصار رجلاً محبوباً بالرّغم من شاربيْه العجيبين، كافياً النّاسَ شرَّه، حيّياً لا يمعن النّظر إلى امرأة بالرّغم من اعتزازه الواضح برجولته. وحين يتجمهر التّلامذة الصّغار أمام دكّانه الصّغير كان لا يزعجه على الاطلاق صياحهم وتدافعهم، بل كان يحتفظ بابتسامته الطيّبة مهما كانت الظروف، وعندما يكون شبه وحيد كان المارّة يرونه دائماً مكبّاً على القراءة في سيرةٍ من السير الشعبيّة، أو في القرآن الكريم، فيلقون عليه التحيّة، فيردّ بأحسن

منها، وقَدْ يُمازِحُهُ بعضُهم بقوله:

ـ شو.. لوين وصل عنتر بن شدّاد؟!...

وكان يعرف أنّهم يقصدونه، فيمسح على شاربيه الرّائعين ويجيب بصوتٍ عال:

ـ الله مُحَيّي الرّجال..

ثمّ يتابع قراءته فلا يقطعها إلاّ على صوت طالب حاجة.

كان يلزمني بالتّأكيد أن أعرف شيئاً عن حياته الدّاخليّة وعلاقته بزوجته وأسرته والظّروف الّتي نشأ فيها كي أفسّر بشكل مقنع العملَ الفظيعَ الّذي أقدم عليه؛ ذلك لأنّ معظم النّاس كانوا غير مصدّقين، ولم يكن من السّهل فَهْمُ تصرّفِه ذاك.

كان أبو حاتم إذن رجلاً صالحاً طيّباً مع الجميع، مستعدّاً لأداء الخدمات بلا مقابل بقدر ما كان مشهوراً برجولته واعتزازه بشاربيه العنتريين. فماذا عسى هو الأمر الّذي يمكن أن يدفع رجلاً بسيطاً إلى هذا المأزق لولا تلك الحادثة؟ كان يجب إذن أن أسأل الابنَ عن التفاصيل فهو الشّاهد الوحيد على ما حدث..

شهادة الابن

كنّا عائدين من السّهرة من بيت عمّي في «الفحّامة». وكان الوالد معتاداً أن يمرّ على الدكّان مهما كان الوقت متأخّراً بالرّغم من أنّ طريقنا إلى البيت له طريق مختصر آخر ولكنّه كان يقول دائماً: «معليش.. ولو طالت الطّريق شويّ الواحد يطمئن أكثر..». ليتنا لم نمرّ يا أستاذ من تلك النّاحية إطلاقاً. كنت أراهم في النّهار أحياناً إذ كانوا يشترون من عندنا الدّخان وكثيراً ما كانوا يبالغون في المزاح مع أبي في موضوع الشّوارب، وكان الوالد يتحمّل منهم الكثير. كانوا يتغيّرون بالطّبع، ولكن ثلاثة منهم كانوا أكثر إلحاحاً من غيرهم. وتشاء الصّدفة أن نقابلهم في تلك اللّيلة كلّهم جميعاً. كانوا مكلّفين كعادتهم بالحراسة وقد تجمّعوا في مكان واحد على الرّصيف المجاور للبيوت الّتي يحرسونها. وكانوا سكرانين قليلاً.. لا أعرف.. ولكن رائحة المشروب كانت فايحة.. المهمّ اعترضونا وأصرّوا على أبي أن يجالسهم، فاعتذر، ولاطفهم كثيراً، ولكنّهم أصرّوا بعناد شديد، فسايرهم وجلس إلى جوارهم وبقيت أنا واقفاً. لا أذكر كيف تطوّر الحديث إلى الشّوارب. أذكر أنّهم كانوا يمازحونه بقسوة، وقد هبّ واقفاً أكثر من مرّة كي يمشي، وفجأة طلع خلق أحدهم منه فأمسك به ودفعه دفعاً إلى الكرسي. ثمّ تطوّر الأمر فاقترحوا الدّخول إلى غرفة في القبو المجاور كي يتابعوا السّهرة.. يا إلهي لو رأيت ما حدث هناك.. جرّوه إلى الدّاخل جرّاً.. وعلى الدّرج شَدَّهُ أحدهم من شاربيه فصرخ، وصرختُ معه، فكتما فميْنا بالكفّ..

لماذا تصرّ عليّ أن أروي لك كلّ هذه التّفاصيل؟ أنا لا أريد أن أتذكّر.. ولكنّك وعدتني أن تكتب عنّا، وتدافع عن كرامتنا.. حسناً.. دخلنا.. كانت الغرفة صغيرة وليس فيها سوى سريرين ضيّقين، وطاولة، وكرسيين، وموقد غاز صغير، وعدّة الشّاي والشّرب.. قال أحدهم:

ـ يجب أن تقول لنا كيف ربّيت هذه الشّوارب؟.

وقال آخر:

ـ هل كانت شوارب عنتر مثل شواربك؟.

وقال الثّالث:

ـ ما رأيك لو حلقناها قليلاً؟.

يا الله!. تسألني ماذا كنت أفعل وقتها؟ كنتُ مرعوباً وعندما حاولت التدخّل للدّفاع عن أبي راجياً متوسّلاً ضربني أحدهم بكفّه ضربةً طرحتني أرضاً، وهناك بقيت إلى آخر الجلسة. ماذا عساني كنت قادراً عليه؟... كانوا ثلاثة رجال مسلّحين، وكنّا وحدنا، والدّنيا ليل، والنّاس نايمة.. ماذا عسى والدي أن يصنع أيضاً؟ لقد سايرهم طويلاً، ورجاهم، وتوسّل إليهم، وأذكر أنّه غضب أخيراً وهدّدهم بتقديم شكوى ضدّهم، فضحكوا منه، وقال أحدهم على الفور:

ـ حسناً.. حتّى تكون الشكوى حرزانة يجب أن نحلق شواربَك.

وهكذا أحضر أحدهم صابوناً، والآخر ماكينة حلاقة، وأقعدوه بالقوّة على الكرسي، وأمسك به واحد، واشتغل به الآخران: واحد يرغي الصّابون ويمسح به وجه أبي، والثّاني يحلق له كيفما اتّفق.. طبعاً جرحوه، ونزل الدّم، ولكن ماذا كان يهمّهم.. قاومهم أبي بالطّبع صارخاً مستميتاً، غير أنّ أحدهم رفع عليه وعليّ المسدّس مهدّداً. وعندها خاف عليّ منهم، ولمّا لم يجد مهرباً، رجاهم بصوت خافت ولكنّني سمعته. كان يقول لهم: «عيب يا جماعة.. على الأقلّ ليس أمام ابني».. ثمّ أعاد الجملة بصوت أعلى دون جدوى، فأدرتُ وجهي حتّى لا تلتقي نظراتنا. غير أنّني رأيت كلّ شيء.. كلّ شيء.. هم الّذين قتلوه بالتأكيد ولولاهم لما صنع بنفسه شيئاً..

أفرجوا عنّا أخيراً، وتركونا وهم يضربون على مؤخّرته صائحين: «لا تـزعل.. بكـره يطلع لـك شوارب غـيرها أكـبر..».. هل في استـطاعتك يـا سيّدي مسـاعدتي في تقـديم شكـوى ضـدّهم؟ لقـد رويتُ لك كلّ هذا بأمل أن تساعـدني.. فكيف يمكن أن أنتقم من هؤلاء الأنجاس؟ لقد أهانونا.. وحرموني من أبي..

محاولة في تفسير أسباب الانتحار

حاولتُ جهدي أن أروي شهادة الابن كما أوردها بلسانه. ولكن هيهـات!. فلو كانت هنـاك آلةٌ تسجيـل تعيد فقط حـديثه الـطفـليّ المـروّع كما هـو لكـان أبلغ من أيّـة قصّـة نجهـد في كتـابتهـا. ولهـذا السّبب لم ألـحّ عليـه في السؤال عن أسبـاب انتحـار أبيـه بعـد تلك الحادثة بيومين. لم يكن ثمّة تفسير آخر.. لقد كانت شهادته كافيـة في اعتقادي. إنّ الرّجل لم يستطع أن يتحمّـل الحياة بعـد تلك الإهانـة الكبرى الّتي لحقت به، وبخاصّة أمام ابنه الّذي ينظر إليه كأنّـه عنتر حقيقيّ. ومن المؤكّـد أنّنـا قـد لا ننتحـر لهـذا السّبب، ولكن «أبـو حاتم» يعملها. ذلك أنّ الشّوارب بالنّسبة له كانت رمزاً خاصّاً لكلّ مـا هو عـظيمٌ ونبيلٌ ورجـوليّ.. فكيف يمكن أن يُتابـع إنسـان مثله حياته من دون هذا الرّمز؟!

معلومات إضافيّة

فكّـرتُ بعدهـا أنّ القصّـة يمكن أن تكـون مُجديـةً أكـثر لـو أنّني استـطعت مناقشـة هؤلاء الرّجـال الّذين قتلوا «أبـو حاتم» بمـزاحهم الثّقيل. هل كان مجرّد مزاح كما يقولون؟ ليتني لم أفعل!.

تعمّـدتُ إذن أن أمـرّ في المكـان نفسـه ظهـرَ ذات يـوم. كـانت الشّـوارع في ريعان ازدحـامها.. بـاعة البسـطات.. السيّارات الّتي تتسلّق الـرّصيف أو تكاد تتـدافـع في وسط الشّارع.. المـارّة المثقلون بأحمالهم وهمومهم اليوميّة، وهؤلاء الشّبان الجالسون بلا عمل سـوى مراقبة النّاس..

هـا هي دمشق تتابـع حياتهـا العاديّـة دون أن تعبأ بفقـدان أحـد مـواطنيها الصّـالحين وقـد قتل نفسـه قهراً ومـرارة.. فلماذا أحمـل السلّم بالعَرض وحدي؟!. خطرتْ لي هـذه الفكرة وأنـا أقترب من المكان وأشاهد من بعيد أحدهم ـ لابدّ أنّه أحدهم ـ جالساً في الظلّ عـلى كرسي واطئ وقـد وضع رشّـاشه الصّغـير بين سـاقيه مكبّـاً إلى الأمام قليلاً، مستنداً إلى سلاحه بكلتا يـديه. لابـدّ أنّه سمـع بخبر انتحار الرّجل. فهل كـان في نظراتـه الشّاردة، وهـو يراقب الـزحام دون تعيين، نوعٌ من اليأس أو تبكيت الضّمير؟

خيّل لي ذلك، وهـذا ما شجّعني عـلى الاقتراب منـه كي أفاجئـه بتحيّتي. ولابدّ أنّه فوجئ إذْ رفع رأسه بحدّة وهو يحدجني بريبة:

ـ نعم.. بدّك شي..؟.

ـ العفو.. أريد أن أسألك عن «أبو حاتم».. هل تعرفه؟.

ـ من أبو حاتم هذا؟

ـ أبو حاتم.. بائع الدّخان والقـرطاسيّـة.. جاركم الّـذي كنتم تشترون من عنده سجائركم..

وحَرَّكْتُ ذراعي في اتّجاه الـدكّان وأنـا أكاد أقـول له: والمعـروف بشـاربيه الكبـيرين.. إلاّ أنّني بلعت الجملة مؤجّلاً إيّـاهـا إلى حـين اللّزوم..

وقف الشّاب بتمّهل وقد تأكّد معنى الرّيبـة في نظرتـه، ثمّ أجاب بشيء من الجفاء:

ـ وما علاقتي أنا بـ «أبو حاتم»؟!.

فقلت ملاطفاً:

ـ يجـوز أن لا علاقـة لك بـالموضـوع إطلاقـاً. سمعت ولابدّ أن بعض رفاقك أثقلوا عليه بالمزاح ذات ليلة فحلقوا له شواربه.. هل تعرف أنّه انتحر بسبب هذا المزاح؟.

تراجع الشّاب قليلاً وقد رفع سلاحه إلى مستـوى خصره بحركـةٍ عفويّة ثمّ قال:

ـ ومن أنت حتّى تحقّق معي؟!

ـ أنـا مجرّد كـاتب.. صحفيّ إذا شئت أكتب تحقيقات لجـريـدتي حول المسائل الّتي تهمّ النّاس والدّولة..

ثمّ أردفتُ مطمئناً إيّاه وقد بدأ ينظر لي باهتمام أكبر:

ـ إنّ رفـاقك ليسـوا مسؤولين بـالطّبـع عن موت الـرّجل. ولكن شهادتهم تفيدني في فهم الموضوع بشكل أعمق.. ربّما انتحـر لسببٍ آخر لا نعرفه..

فقال على الفور:

ـ بالتّأكيد.. إنّ الإنسان لا ينتحر لمثـل هـذا السّبب السّخيف. وعلى كلّ حال أنا لا أعرف شيئاً عن الموضوع، ولا أعتقـد أنّ أحداً

من رفاقي يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل..

كان شاب آخر قد انضمّ إلينا أثناء الحديث، وقد لاحظتُ أنّه أكثر اعتداداً بنفسه بالرّغم من صمته حتّى تلك اللّحظة. كان يحمل سلاحه بيدٍ واحدة ملوّحاً به إلى الأمام والوراء وهو يقف منتصباً منفرج السّاقين.

قلت لمحدّثي:

ـ وأين رفاقك الآن؟

وهنا تدخّل الآخر على الفور وهو يؤكّد على اعتداده بقوله:

ـ أنا واحد منهم. ماذا تأمر.. ومين حضرتك؟.

فقال الأوّل مستدركاً كمن يريد تهدئة الخواطر:

ـ حضرته كاتب صحفيّ..

فقال الثّاني على الفور:

ـ طُظْ.. وإذا كان كاتباً.. رُحْ اكتب في موضوع غير هذا الموضوع التّافه..

سقطت عليّ الجملةُ كصفعة مفاجئة على الوجه. وحمدتُ الله في سرّي أنّ أحداً لم يسمعها من المارّة. فجرضتُ بريقي وقد احتقنت آلافُ المشاعِر والكلمات في رأسي وفمي وأعصابي دون أن تجد لها مخرجاً سوى الصّمت والتّحديق الفارغ.

قال الشّاب نفسه وقد شعر بتفوّقه:

ـ شو.. ألم يعجبك كلامي؟.

درستُ الموقف بسرعة البرق. لقد كان حُمقاً مِنّي أن أفكّر أصلاً في الحديث مع هؤلاء البشر. ما جدوى أيّ حديث معهم سوى أن يعرّض الإنسان نفسه للإهانة دون أن يكون قادراً على ردّها؟ وهكذا أقنعت نفسي بالانسحاب بعد ردٍّ بسيط لم يتجاوز هذه الكلمات:

ـ شكراً على كلّ حال.. والعفو على إزعاجكم..

ـ مع السّلامة يا أستاذ.. قال كاتب قال..

لا أدري مَنْ مِنَ الاثنين قالها فقد كنت مستديراً أهمُّ بالذهاب وقد اختلطتْ عليّ الأصواتُ وتشوّشتْ معالمُ الأشياء، فابتعدتُ دون أن أجيب بأيّة كلمة.

عَن علاقة الكِتابَة بالشّوارب

تلك الإهانة التي لا تقلّ شأناً عن حلق شاربَيْ «أبو حاتم» لم تدفعني إلى الانتحار بالطّبع. ولعلّ المسوّغ الوحيد الّذي أقنع به نفسي حتّى الآن كي لا أفعل فعله وكي لا أقول إنّ ذلك الرّجل البسيط كان أعمق إحساساً بكرامته منّي، هو أنّني كاتب، وأنّ الجملة السّفيهة الّتي رماني بها ذلك الشّاب الرّقيع لم تجرّدني فعلاً من قدرتي على الكتابة كما جُرّدَ أبو حاتم من شاربيه، وأنّ ردّي المفحم هو في أن أكتب قصّة «أبو حاتم» أو «قِصّتي» أو قِصّة أيّ واحدٍ منّا ذات يوم... ولا بدّ أن أكتبها. وإلّا فالأجدر بي أن أنتحر مثل «أبو حاتم» تماماً..

دمشق